الفصل الرابع

انجلترا في عصر أسرة تيودور

تبدأ انجلترا تاريخها الحديث قبل أى دولة أوربية أخرى ففى حين أن العديد من دول أوربا تبدأ تاريخها بعصر النهضة فان الانجليز يبدأون تاريخهم بفتح النورمانديين لبلادهم فى عام ١٠٦٦م ، ويستندون فى ذلك الى أن استيطان النورمانديين فى انجلترا وامتزاجهم مع شعبها قد نتج عنه تكوين الشعب الانجليزى الحديث الذى امتدت أملاكه الى العديد من دول اوربا وخاصة فرنسا[1] .

ونتيجة للتنازع على عرش انجلترا قامت بها حرب أهلية أطلق عليها حرب الوردتين ١٤٥٥ — ١٤٨٥م نسبة الى شعار الأسرتين المتنازعتين على العرش ، فكانت الوردة البيضاء شعار أسرة يورك ، والوردة الحمراء شعار أسرة لانكستر وتمكنت من الاستيلاء على الحكم ، وبدأت فى اضطهاد معارضيها بقسوة شديدة ، مما جعل الشعب الانجليزى ينفر منها ويقوم بمؤازرة أسرة لانكستر حتى مكنها من الوصول الى العرش .

وقد استطاع « هنرى تيودور » مؤسس هذه الأسرة والذى أطلق على نفسه « هنرى السابع » أن يقود بلاده فى فترة من أصعب فترات حياتها ، فنجح فى انهاء الحروب الاقطاعية ، وأوقف المغامرات الخارجية التى كانت بلاده قد انغمست فيها ، وعقد معاهدة تحالف مع أسبانيا .

---

(١) لم يستطع الانجليز المحافظة على ممتلكاتهم فى فرنسا وبخاصة بعد حرب المائة عام وما قامت به « جان دارك » من بطولات نادرة ألهبت حماس مواطنيها .

ونتيجة لحركة الكشوف الجغرافية والمغامرات البحريـــة التى بلغته أوج قوتها فى ذلك الوقت ، ونتيجة أيضا لاهتمام « هنرى السابع » بتشجيع تجارة بلاده وتنميتها شهدت انجلترا رخـــاءا اقتصاديا لم تعرف له مثيـــلا من قبـــل .

والى جانب ذلك فقد ساعد هنرى على انعاش حرية الفكر فى بلاده بتشجيعه لحركة النهضة واحياء العلوم والاصلاح الدينى كما عمل عـــلى تنظيم الادارة الحكومية حتى بلغت درجة عالية من الكفاءة .

وهكذا انصرف الانجليز عن خلافاتهم السياسية ، وبـــدأوا يعيشون عصرهم فى ظل ملك قوى نجح فى استتباب الأمن والنظام فى أرجاء بلاده ، كما كانت له اليد الطولى فى ادارة شئونها دون أن يعبأ بسلطة برلـــمان أو غيره .

ولكى يقوم هنرى بتدعيم الملكية ويحد من سلطة النبلاء الذين قامت حرب الوردتين بسببهم قام باصدار عـــدة قوانين كان من أهمها « قانون غرفة النجم » عام ١٤٨٧م والذى ينص على مراقبة النبلاء والعمل عـــلى الحد من نفوذهم وقانون آخر يقضى بمحاكمة معارضى الملك بتهمة الخيانة ، وقانون ثالث يحرم على النبلاء جمع الأتباع والأنصار بغرض زيادة نفوذهم . يضاف الى ذلك القانون الذى شدد قبضة الملكية على شئون الصناعة .

وبهذه القوانين وما شابهها تمكن هنرى الســـابع من تأسيس ملكية قوية تحكمت بقبضتها على زمام الأمور فى انجلترا .

هنرى الثامن وحركة الاصلاح الدينى :

خلف هنرى الثامن والده فى حكم انجلترا عام ١٥٠٩م ويختلف عهده عن عهد أبيه اختلافا واضحا ، ففى حين كان الانجليز قد سئموا عهد والده لأنه لم يحقق لانجلترا اى مكاسب دولية ، فقد رحبوا بحكم ابنه الذى كانت لديه تطلعات واسعة فى رفع رايات النصر لبلاده وجعلها قوة دوليـــة لها مكانتها وهيبتها ، فعمل على بناء أسطول قوى لانجلترا ، ونجح فى اجبار فرنسا على دفع اتاوة سنوية لبلاده بعد انتصاره عليها ، وناصر أسبانيا

ضد فرنسا فى الحلف المقدس ١٥١٩ م وقام بتأديب الاسكتلنديين الذين حاولوا غزو بلاده ، وقام بتوحيد شمال انجلترا وجنوبها ، يضاف الى ذلك رفضه وصاية البابوية على بلاده وتشجيعه لحركة الاصلاح الدينى ، واستصداره القوانين التى ساعدت على نشر المذهب البروتستانتى فى انجلترا ، وأدت الى فصل الكنيسة الانجليزية عن كنيسة روما ، واتخاذها طريقا وسطا وقيام الاضطرابات والمظاهرات العادية للبابا ولم يكن ذلك بوازع دينى من جانبه حيث انه كان معروفا بمعارضته لحركة لوثر وكارها لها منذ ظهورها لدرجة أن بابا روما منحه لقب حامى العقيدة لكتابته بحثا رد فيه على لوثر وأفكاره ، بل كان لأسباب سياسية وشخصية محضة جعلته يلقى بكل ثقله لتأييد حركة الاصلاح الدينى ، وأهم هذه الأسباب هى :

١ — رغبته فى التخلص من نفوذ كنيسة روما ، حتى يكون الحاكم الأعلى لانجلترا سياسيا ودينيا ، وان يكون كل السلطان فى يده .

٢ — رغبته فى التخلص من زوجته كاترين الارجونية أرملة اخيه الأكبر آرثر وابنة الملك فريد ناند ملك اسبانيا والزواج من وصيفتها « آن بولين » الذى أغرم بها ورغب فى أن ينجب منها طفلا ذكرا يتولى الحكم من بعده وخاصة ان كاترين لم تنجب له سوى ابنته مارى . ولما كان ذلك العمل يعتبر منافيا للقوانين الكنسية فى روما خصوصا وان الطلاق محرم لدى الكاثوليك فقد كانت هذه الخطوة الخطيرة تلزم موافقة البابا ، ومع أن الباباوات غالبا ما يستجيبون لرغبات الملوك خفية ، فان الوضع كان يختلف فى هذه المرة حيث كان البابا كلمنت السابع يعيش فى ذلك الوقت تحت سيطرة شارل الخامس ملك اسبانيا وشقيق زوجة الملك هنرى ويخشى اغضابه ونتيجة لذلك لم يستطع هنرى الحصول على موافقة البابا بطلاق « كاترين » .

ولما تعقدت المسألة اضطر الملك هنرى الى اتخاذ عدة قرارات ضد كنيسة روما فقد اختار « توماس كرومويل » Thomas Cromwell اكبر واشد انصار فصل كنيسة انجلترا عن كنيسة روما ، وجعلها تحت

رئاسة ملك انجلترا للعمل كنائب عنه فى شئون الكنيسة ، وقد قام كرمويل بمساعدة الملك فى التخلص من سياسة الكنيسة البابوية وتحقيق مآربه فى الطلاق من كاترين والزواج من آن بولين وبثلاث اخريات فيما بعد ، والاستيلاء على الأموال الخاصة بكنيسة روما فى انجلترا ، وبسط سلطاته الدينية والدنيوية على بلاده . وعلى الرغم من ابتهاج معظم الانجليز لهذه الخطوة فقد رفضها الكاثوليك المتعصبون ، وقاموا بثورة فى شمال انجلترا ضد الملك هنرى الثامن ، ولكنه استطاع القضاء عليها والسيطرة على الموقف .

وهكذا ظهر الاصلاح فى انجلترا بشكليه السياسى والدينى ، وساعد على ذلك رغبة الشعب الانجليزى فى وضع حد لمفاسد الكنيسة الكاثوليكية ، وخاصة بعد أن ظهرت جماعة مصلحى اكسفورد التى أبرزت استغلال البابوية لبلادهم فى بيع صكوك الغفران ، والحصول على مكاسب ضخمة نتيجة لذلك ، ورغبتهم ايضا فى الاستقلال بشئونهم عن أية سيادة أجنبية او وصاية وبخاصة لأن البابوية فى نظرهم كانت تمثل سلطة أجنبية عنهم .

وعلى كل حال فقد ترك الشعب الانجليزى لمليكه امر اختيار السياسة الدينية ، وقد ساعد الملك على ذلك أن البرلمان بمجلسيه كان خاضعا له فأصدر تشريعاته الملائمة لرغبات الملك والمؤيدة للاستقلال عن الكرسى البابوى والاحتفاظ بالأموال التى كانت ترسل لروما كل عام فصدر قانون السيادة العليا الذى يعتبر الملك هو الرئيس الأعلى للكنيسة الانجليزية القومية ، وخوله كل السلطات التى يتمتع بها الباباوات ، كما ألغى ما كان للبابوية من سلطة فى المسائل الكنسية .

ونتيجة لذلك استطاع الملك هنرى أن يحقق استقلال الكنيسة الانجليزية وأن يكون رئيسها الأعلى ، كما استطاع أن يحقق رغبته فى طلاق كاترين والزواج من « آن بولين » ، وأن يملأ خزانته بالأموال التى كانت تتدفق من انجلترا على كنيسة روما .

وهكذا يتضح انه على الرغم من أن حركة الاصلاح الدينى فى انجلترا كان مبعثها أسبابا شخصية فانها ساعدت على ازدياد قوة الملكية وتهيئة

متطلباتها من وسائل الأبهة والقوة ، وأكدت المبدأ الذى نادى به هنرى الثامن بأن السلطة الملكية لا تتجزأ ولا تقبل القسمة .

وفى عام ١٥٤٧ توفى هنرى الثامن وخلفه ابنه ادوارد السادس من زوجته الثالثة جين سيمون .

ادوارد السادس وموقفه من البروتستانتية :

تولى ادوارد السادس الحكم فى الفترة من عام ١٥٤٧ وحتى عام ١٥٥٣ وكان قاصرا عند توليه الملك حيث لم يزد عمره عن العاشرة مما جعل المجموعة البروتستانتية المحيطة به برئاسة عمه ادوارد سيمور والذى أنعم عليه بلقب « دوق أوف سومرست » تسيطر على زمام الأمور ، وتسير بحركة الاصلاح الدينى شوطا بعيدا فصادرت ما تبقى من أموال الكنيسة ، وأدخلت المذهب البروتستانتى الى البلاد فى آن واحد كما تناولت التغيير فى العقيدة الكاثوليكية بالغاء طقوسها وتحطيم الصور والتماثيل الدينية واباحة زواج القساوسة والغاء كل القوانين التى ادت الى اضطهاد البروتستنت . واصدار كتاب الصلوات العامة بالانجليزية ، وهو الكتاب الذى طبعته الكنيسة البروتستانتية بطابع قومى عام ١٥٤٩ ، وجعل الصلوات الجديدة جامعة مما أحدث عصيانا دينيا فى جنوب غرب انجلترا .

ونتيجة لهذه التغيرات قامت اضطرابات عنيفة داخل انجلترا بين الفلاحين الكاثوليك بالأقاليم الغربية ، كما قامت ثورات أخرى نتيجة لظهور شبح البطالة والتذمر من ارتفاع الأسعار ، ويرجع ذلك الى قيام أصحاب الحقول باغلاقها ، وتحويلها الى مراع للأغنام للاستفادة من صوفها بدلا من زراعتها ، ومن هنا طردوا الفلاحين الصغار من أراضيهم واحاطوها بأسوار ، وبذلك تحولت مساحات كبيرة من الأراضى الزراعية الى حقول مسورة لتربية الأغنام مما أدى الى اشتداد البطالة وارتفاع الأسعار وتسبب فى غضب الرأى العام على الملك ادوارد واتهامه بجمع ثروة طائلة من أموال الكنيسة . وزاد الأمر توترا محاولات الملك ادوارد

السادس تغيير نظام الوراثة بحجة أن خليفته الشرعية على العرش مارى كاثوليكية متعصبة ، كما أنها ابنة غير شرعية للملك .

ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل ، وتولت مارى تيودور الحكم بعد وفاة الملك ادوارد .

مـارى تيـودور(٢) :

تسلمت مارى ابنـة هنـرى الثامن من زوجتـه الأولى « كاترين الأرجونية » الحكم فى عام ١٥٥٣م ، وقد دفعها تعصبها للكاثوليكية الى اعادة حق الكثلكة فى العبادة الانجليزية مما قلب الأوضاع فى انجلترا راسا على عقب كمـا كان من أول قراراتها استبدال الأساقفة البروتستانت بكاثوليك واعادة العلاقات مع روما والى جانب ذلك قامت باضطهاد المخالفين للكاثوليكية ، فأحرقت اكثر من مئة من الأساقفة البروتستانت أحياء ومنهم الأسقف « كرانمر » الذى بارك زواج والدها من « آن بولين » وامـرت بالغاء كتابى الصلوات المعمول بهما هـذا الى جـانب أنها وافقت عـلى الزواج من « فيليب الثانى » ملك اسـبانيا الكاثوليكى ، والغت القوانين المعادية للباباوية منذ عهد هنرى الثامن مما زاد من غضب الشعب الانجليزى عليها خصوصا وأنه كان يرنو الى الاستقلال بشـئون بلاده عن كل من اسبانيا والباباوية وأصبح يخشى أن يؤدى هذا الزواج الى تحويل انجلترا الى بلد تابع لاسبانيا ، ويورط انجلترا فى حروب مع فرنسا لا ناقـة لها فيها ولا جمل . وتتيجة لذلك ارتفعت أصوات الاحتجـاج ضدها ، ولكنها قاومت معارضيها بشدة لم يسبق لها مثيل من التنكيل والارهاب لدرجة أن

---

(٢) عاشت هذه الملكة شبابها المـأساوى الذى لم تذق خلاله قط طعما للسعادة ، ففى الثامنة من عمرها أعلن والدها بطلان زواج أمها ، وفى الخامسة عشرة من عمرها افترق والدها عنها ، وأعلن انها ابنة سفاح وتم تجريدها من لقبها كأميرة بعـد مولد أختها اليزابيث ، ثم استرضاها والدها بعد ذلك .

للتفاصيل انظر : ول ديورانت : قصـة الحضـارة حـ ٤ ، المجلد السادس ص ١٥٤ .

أطلق عليها البعض اسم مارى « الدموية » كما اعتبر البعض الآخر عهدها بمثابة ردة بالأمور الدينية .

وعلى الرغم من أنها كانت ترغب فى أن تلد ابنا من فيليب ، فان شعبها كان يخشى أن يكون ثمرة زواجها من الملك الاسبانى انجاب طفل تجرى فى عروقه الدماء الاسبانية ، ويصبح بعد ذلك وليا لعهد انجلترا ، ولكن من حسن حظ الانجليز أن « مارى » كانت عاقرا مما هدأ من روعهم وأزاح عنهم كابوسا كان يقض مضاجعهم .

ورغبة من مارى فى تلبية رغبة زوجها قامت بجر بلادها فى حرب ضد فرنسا من أجل مصالح أسبانيا ... ، مما جلب على انجلترا أوخم العواقب حيث انتزع منها الفرنسيون ميناء كاليه عام ١٥٥٨ ونتيجة لذلك ضج الشعب الانجليزى من حكم مارى الذى ارتبط فى ذهنهم بالقتل وسفك الدماء والتضحية بمصالح بلادهم فى سبيل أسبانيا وعلى كل حال فقد ابتسم الحظ للانجليز بأن تكون خليفته هذه الملكة على العرش هى أختها اليزابيث . ابنة آن بولين .

الملكة اليزابيث (الياصابات) :

يعتبر عصر الياصابات من أزهى العصور فى تاريخ بريطانيا الحديث حيث استطاعت بذكائها ودهائها اعادة روح الانسجام بين الشعب الانجليزى التى طحنته الاضطربات الدينية خصوصا بين الكاثوليك والبروتستانت وبخاصة أنها لم تكن متعصبة لأى طرف من الأطراف .

وفى عهدها ازداد البرلمان البريطانى قوة واتسع دوره وتوطد نظام الكنيسة الانجليكانية ، وازدادت قوة بريطانيا البحرية بحيث أصبحت سيدة البحار بلا منازع كما ظهر فى عهدها العديد من الشخصيات الأدبية والروائية التى أنعشت الروح الأدبية فى بريطانيا وكان على رأس هؤلاء وليم شكسبير .

وعلى الرغم من أن اليزابيث لم تكن متعمقة فى النواحى الدينية فقد استطاعت صبغ بريطانيا بطابع مميز ففصلت كنيسة بريطانيا عن كنيسة

روما ، وأعـــادت كتاب الصلوات البروتستانتيـــة ، ووضعت من القوانين ما يتيح لملك بريطانيا السيادة على جميع الشئون الدينيـــة والزمنيـــة معا ومعاقبة كل من يقبل أى تعاليم من جهة أخـــرى ، كما أدخـــلت العديد من التعديلات على نظام العبادة ، بحيث أصبح نظـــام الكنيســـة الانجليكانية بروتستانتى العقيـــدة كاثوليكى المظهـــر ولمـــا لم يرض المتطـــرفون من الكاثوليك عن هذه التعديلات استغاث بعضهم بالملك « فيلب الثانى » ملك اسبانيا لانقاذهم من هذا النظام ، وطالبوه بالتدخل فى الأمور ، ونتيجـــة لذلك أرسل ملك اسبانيا أسطوله (الأرمادا) الى انجلترا فى عام ١٥٨٨م فى محاولة لتخليص الكاثوليك من النظام الانجليكانى .

وقد قبلت انجلترا التحدى ، واستطاع الأسطول الانجليزى الصـــغير الحجم تحطيم الأسطول الاسبانى فى معركة رهيبة عند القنال الانجليزى ، ولم ينج منه سوى أربع وخمسون سفينة أتت عليها العواصف وجعلتها فى عداد التالفـــة .

ونتيجة لذلك انهارت امال الكاثوليك الانجليز فى مساعدة أسبانيا لهم ، وخرجت بريطانيا ظافرة منتصرة ليس فقط فى النواحى الحربية والسياسية ولكن أيضـــا فى القضـــاء عـــلى العقبات التى كانت أمـــام تحولها الى البروتستنتية .